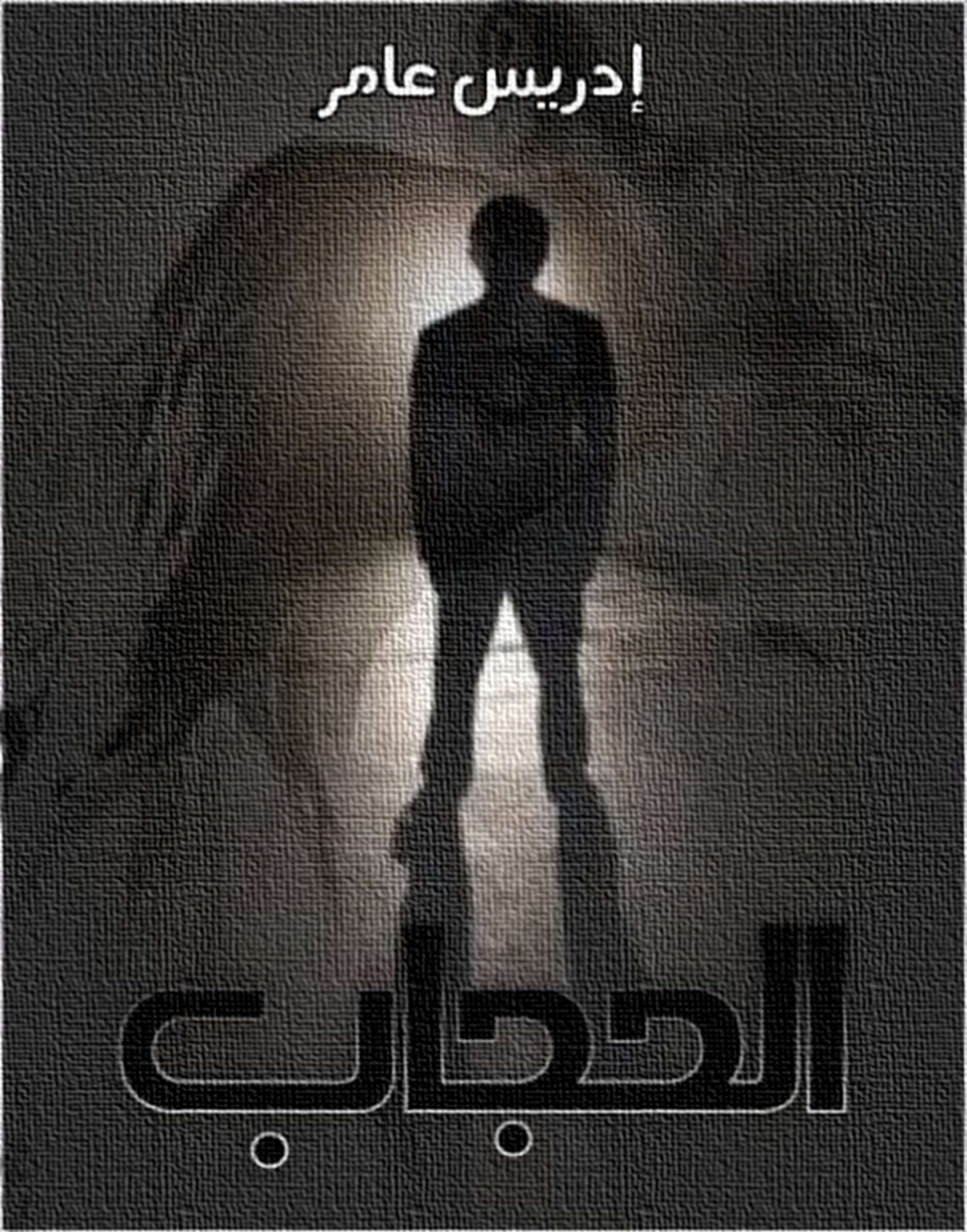
إدريس عامر
الحجاب

الحجاب

إدريس عامر

تنويه

الملكية الفكرية محفوظة لمؤلف القصة القصيرة، والمكتبة غير مسؤولة عن أفكار المؤلف.

وينص الإعلان العالمي لحقوق الإنسان على أنه "لكل شخص حق المشاركة الحرة في حياة المجتمع الثقافية، وفي الاستمتاع بالفنون، والإسهام في التقدم العلمي وفي الفوائد التي تنجم عنه. لكل شخص حق في حماية المصالح المعنوية والمادية المترتِّبة على أيِّ إنتاج علمي أو أدبي أو فنِّي من صنعه".

في قبوي، الذي أصابه اكتئاب جسيم، لأن الشمس لا ترى جذرانه، ولأنني أنهكته بانطفائي. إن قبوي غريب جدا، مظلم ليلا ونهارا، وجذرانه عارية كلها ما عدا بعض المناطق، مازالت لم تتذوق شر الدهر.

جالس أنا على أريكتي البالية والساعة عقرباها متعانقان، ويشيران إلى الخامسة بعد منتصف الليل، وأنا أستعيد في ذاكرتي شريط عشر سنين مضت من حياتي البائسة، فأشعر كأنني سجادة صلاة أُرسِلت بالخطإ إلى ملهى ليلي، وبالرغم من الألم الذي يحتويه هذا الشعور إلا أن في أعماقي اللاواعية يبصم لذة خافتة تلمح لي بحقيقتي الأزلية.

وقبل عشر سنين من الآن، كنت في الخامس عشرة سنة، وفي هذه الفترة صفعتني بضع صدمات، تسببت في توقف جسدي عن النمو، نعم أنا الذي كان من يراني يتنبأ لي بالقامة الطويلة، لكنّ الأمور لا تجري دائما نحو نفس الهدف الذي تنبأ به البشر، فالحياة غامضة ولا يمكننا إدراك حقيقتها بالتحليل الرياضي، كما أن أرقامها لا تسمو إلى حكمتها قواعد

البشر. وللأسف، فهي عشر سنين مضت من حياتي، لمسَت جدران بيتي حتى محت من وجهِها الطلاء، لكنّ جسمي بعناده ظل صامدا، فلم ينمو ولو سنتميترا واحدا إلى الأعلى، بل ظل منحصرا في متر وستين، كما ظل كتفيّ ضيقين وضئيلين، ومع ذلك لا مشكلة لدي، فدماغي الذي أشعر بضخامته يعوض إحساسي بالنقص. وفي السادسة صباحا، شعرت بالنعاس ووضعت رأسيَ الضخمَ لكثرة ما يحمل من أفكار متصارعة، ولم أنم بالرغم من أنني أشعر بالنوم، كم أنا بائس ومع ذلك أغمضت عينيّ أصارع النوم بنفسي.آااه على الفجوة بين من يضع رأسه على الوسادة فيضيفه النعاس دون أن يشعر، ومن لا يتوقف عقله عن التفكير وحتى إذا خدع النوم مرة ودخل إلى غيبه من النافذة الورائية قام بإخراجه من الباب. إن النوم راحة سلمية يرفض من يحمل حربا في رأسه، وماذا لو كانت حروبٌ أيها النوم ؟ حرب الخير ضد الشر ! العبث ضد المعنى ! والموت ضد الحياة ! ومن قلب هذه الحروب الثلاثة تتفرع حروب عديدة ولا تنتهي.

وأما في فضاء أفكاري القاتم، تقف بعض رغباتي وقفة مرتعشة، كأنها تخاف الإصابة بعدوى الشلل والعمى الذي انتشر في نفسي، ولم يترك فكرة في عقلي إلا وأصابها، وهذه الرغبات الخائفة تتمثل في هروبي من هذه المدينة الكالحة التي يعرفني فيها كل الناس، أقصد لا يعرفونني ولا يمكنهم التعرف على وجهي الذي لم يتجلى في مرآة سوى مرآتي، والتي بدورها لا تخلو من ضباب يعيق الرؤية المباشرة لحقيقتي، فيجعلني فقط ألمح ولا أبصر، كالكلمة عندما تصبح على طرف لسانك، فلا هي منسية، ولا أنت قادر على استبطانها. ولأستمر في كلامي، قلت إنني أرغب في الهرب إلى مدينة أخرى، لعل الأفكار القاتمة تأخذ دور رغباتي، فتصبح هي الخائفة من عدوى النور الذي ينتشر في أعماق نفسي. وكذلك أرغب في إيجاد عمل يطرد الفقر والحاجة من واقعي، وأنا جالس في قبوي حاملا رغبتين خائفتين من الخروج إلى أرض الواقع، لكن سأفعلها وأهرب من هذه المدينة ولِمَ لا البلاد كلها، وسأملأ جيبي بالمال، وعندما يُملأ الجيب وتَشبع البطن يرغب العقل في سماع أغنية أو مناقشة فكرة!

أما والجيب فارغ والبطن جائعة فوجود الجهل والعدوان لا محال! إنها حكمة تدون وتقال.

ولم أشعر بنفسي حتى نمت بالرغم من بوابل الأفكار المؤلمة التي هاجمتني بالليل، وكان عقربا الساعة آخر مرة حدقت فيهما قبل النوم يشيران إلى السادسة والنصف ويا للسخرية، كأنهما يذكرانني بالفراغ العاطفي الذي يكبلني بأحباله.

استيقظت في العاشرة صباحا وما معنى الصباح هذا ونفسي من الداخل لا تشعر بنوره ولا بزقزقة العصافير المتفائلة، وهي سعيدة لأنها مستسلمة لإرادة الله دونما حاجة إلى أي تفكير أو عقلانية زائفة. أما أنا فلا أنتهي من الكلام والتفلسف مع كل جملة أقولها، لكن هي حاجة نفسية لا أقوى على هزمها بتجاهلها. وبعدما استيقظت أخرجني الجوع من غرفتي، فوجدت خالتي تأكل بيضا مقليا وزيتا وزيتون وتُطعم معها أمي المصابة بالشلل. وبعد الفطور، أخرجني الملل من المنزل إلى شوارع المدينة التي بكثرة ما رحت وجئت فيها أصبحت أعرف كل من يسكنها.

وفي طريقي إلى البيت بعد جولة طويلة كئيبة، اتصل بي صديقي الذي لم أر وجهه منذ الإعدادية، حيث اضطر هو الآخر إلى الهروب من هذه المدينة، وكنت من قبل قد طلبت منه أن يبحث لي عن عمل جيد في المدينة التي يعيش فيها. وأجبته متثاقلا:

- آلو بخير

= بخير الحمد لله، اتصلت بك لأنني وجدت لك عملا هنا، وأنا متأكد أنك ستحبه.

- إذا ماذا يجب علي فعله الآن؟

= وماذا عليك فعله غير أن تحمل متاعك وتأتي إلي غدا في الصباح؟!

فبشرته أنني غدا سأكون عنده في المدينة وودعته وودعني وقطعت الخط. تحمست بعض الشيء، وذلك ما تبيّن في خطواتي المسرعة بعدما كنت أمشي كالذي من تحت رجليه بيضا يخاف كسره، وعندما وصلت إلى البيت، دخلت مسرعا إلى غرفتي وأقفلت من ورائي الباب، ارتميت على

أريكتي، غير أن هذه المرة كان في ارتمائي سرا جديدا حرّك فضولها، وفتحت مخيلتي التي دائما ما أسعدتني لأنني أرى نفسي حققت رغباتي من خلالها، بالرغم من كونها غير موجودة على أرض الواقع، لكنها تمنحني مشاعرا لذيذة تخرجني من دوامة الهم الذي عشقني.

تجلى الصباح، ونهضت من المضجع وفي أعماقي أستشعر أحاسيساً غير مألوفة! ربما هي نتيجة خبر الأمس، ومظهر من مظاهر حماس اليوم، لكي أستعد للسفر تاركا مدينتي البائسة الباكية وأمي الحبيبة. لقد نلتي من شفقتي يا ماما، منذ الصغر وأنا أراك بلا حول ولا قوة، تمثلين الأنوثة الشرقية المقهورة عامة، أنوثة قهرها الذكور بكل قسوة وخبث، وأولهم بابا، ويا رباه أقول بابا لرجل لم أره ولو لمرة في حياتي. لقد غدرك يا ماما، بعد سنتين من علاقة حب نقية، كان يسعى – بحسن نية – في كل يوم من أيامها إلى عشرة دقائق فقط، وفي الليلة التي طمأنك وفاز بأمانك، حظى بغايته التي طالما سعى إليها، فذهب ولم يعد. رمزا من رموز الحقارة

كنت يا بابا، سنتين وأنت تستغل حنانها وسذاجتها من أجل رعشة جنسية!

خرجت من المنزل وأنا مطمئن بأن خالتي ستحنو على أمي وترعاها طيلة فترة سفري. ولحسن حظي كانت المحطة قريبة، فلم تمض ثلاث ساعات حتى كنت قد وصلت إلى المدينة الجديدة، فدهشتني بعماراتها الشاهقة واكتظاظها السكاني، ناس ذاهبون وناس رائحون، كل الوجوه حائرة، وكل الأصوات مضطربة، وكل الضحكات مكلفة. تزاحمت عدة مشاعر في نفسي، تصدرها إحساس الاغتراب. لقد ألفت شوارع وجدران مدينتي وكل شيء فيها إلا البشر. فكيف يألف الفرد من لا يعرفونه إلا كمجرد جسد؟ فلو سألت شخصا من معارفي عن رفيع، لأجابك ذلك الشاب قصير القامة. هكذا يعرفونني، ويعرفون بعضهم البعض. علاقات سطحية، طابعها المصلحة. ومن بعيد لمحت صديقي وهو في طريقه إلي، وفمه ينفرج شيئا فشيئا بابتسامة كلما اقترب مني تصافحنا بحرارة كشفت عن شوقنا المتبادل، وكانت آنذاك فترة الظهيرة، والشمس في عز تألقها،

والناس ساخطون على بعضهم وعليها، وكان جسمي الصغير يذوب من العرق داخل قميجة سوداء مرقطة بالأبيض، وكان وجه صديقي أحمر كحبة طماطم، وقطرات من العرق تنزلق على أنفه الطويل. أشار لي بالجلوس في مقهى صغيرة اسمها مقهى السعادة، وأنا بحسن نية أبحث عن السعادة في وجوه الجالسين، فلا أرى سوى المجانين. كهل نائم وفمه مفتوح، تطل منه سن طويلة تعيش العزلة والضياع، وشاب يحضن هاتفه أمام وجهه وتكاد عيناه الخروج من مكانهما في انفعال وحماس حاد كالجنون. شربت كأس الليمون دفعة واحدة، وبنبرة استهزاء سألت صديقي:

– أين هي السعادة؟ فأجابني بنفس النبرة المستهزئة:

= ألم تر حولك كل هذه الوجوه؟ تأمل في السعداء حولك، إن المقهى تنفجر بهم.

– إن السعداء يا مصطفى، لا يجلسون في المقاهي بالساعات، و لا يجدونها ملاذا لهم بتاتا، إن المقاهي جميعها، للبؤساء والمجانين، للهاربين من العال وأنفسهم.

= طبعا، والهواتف والقمار والحشيش وسائل هروب، إن الدار البيضاء تكتظ بالهاربين، وأنا واحد منهم! إن المغرب كله يكتظ بالهاربين!

_ العالم كله يا صديقي! العالم كله للأسف.

انقطع بيننا الكلام، فلبثنا نتأمل المارين من أمام المقهى، وبعدما استرجعنا طاقتنا، وتغير الجو، واختبأت الشمس خلف العمارات الشاهقة، تهيأنا للذهاب إلى غرفته. وبعد نصف ساعة من المشي، ونصف ساعة أخرى في الحافلة، وصلنا إلى غرفته، وهي غرفة في سطح عمارة تضم ستة أدوار، وهي بدون نوافذ، ذكرتني في غرفتي. لكنني ارتميت هذه المرة على أريكة أخرى لا تعرف أسراري. أعتقد أنك اشتقت إلي يا أريكتي، رائحتي التي تفوح منك، وأثار جلوسي الطويل. يبدو أننا نحمل شوقا متبادلا، وأنت يا سقف حجرتي، أعرف أنني كنت أخيفك بتأملي غير المنقطع،

كنت تقلق وتتوتر، وتكسو وجهك حمرة من الخجل، لكن يا سقف غرفتي كنتَ سيئ الظن، فرغم أن حدقتيّ كانتا تتجهان نحوك، إلا أنهما في الحقيقة، كانتا تتجاوزاك إلى فوق، إلى فوق، إلى أعمق نقطة في اللانهاية.

أذن أذان صلاة المغرب، فخرجت من الغرفة. وكان الجو جميلا جدا على السطح، نسمات باردة تلثم الوجوه، وتعبث بالشعر كأنامل أم حنون، والسماء تكسو مغربها خيوط حمراء، والشمس تنير وجهي بنور دافئ لذيذ. أجواء درامية في فيلم درامي، وأنا البطل الذي يتأمل في نفسه ساعيا إلى تغيير الواقع، وإخراج المكتوم، ولم أشعر بنفسي حتى ترقرقت عينيّ بالدموع. الغربة تنهش أضلاعي، والواقع خيّب آمالي، ببراءة طفل كنت أعلم أن الحياة مملكة تقوم على الحب، ولكن الناس ينصحوني بالحذر وسوء الظن والمكر. إنهم يناقضون فطرتي، يريدون مني أن أعيش ذئبا، إما آكل أو مأكول. فطرتي ترى الحياة جنة قانونها الحب، ولكنهم يؤكدون لي أن الحياة غابة قانونها الناب. كانت ماما تعيش أحلام الحب والزواج، وعندما استيقظت وجدتني في بطنها، لكنها لم تجد بابا. الأحلام الوردية

أصبحت غابة من الأشواك، والمشاعر الدافئة أصبحت بركانا حارقا. فظلت الأم الساذجة تتعذب وتبكي، تتعذب وتبكي، وتتعذب وتبكي، حتى حان موعد ولادتي، فخرجت هاربا من بطنها، وفرح الدكتور. لقد كان يصلني عبر الحبل السري طعاما مهضوما بالمعاناة وشرابا مالحا ممزوجا بالدموع، فكيف لي ألّا أهرب بسرعة يا حضرة الطبيب؟! وأما لاوعي الماما لم يجد حلا أمام هذه المعاناة سوى إصابة جسمها بالشلل بعد سنة من ولادتي، وحسب علم النفس: عندما تتضخم المعاناة إلى حد كبير جدا، تظطر النفس إلى إصابة الجسم بمرض، وذلك حسب نوع المعاناة، فالماما أصيبت بالشلل، لأنها عندما كانت تخرج من المنزل حاملة إياي، كانت تتلقى نظرات وتسمع همسات، تؤلمها حد البكاء. وهكذا فتحت عينيّ على الحياة، لأجد نفسي في حضن خالتي وفي منزلها، أما الماما، فكانت طول اليوم جثة هامدة أمامي، لا تحرك سوى حدقتيها، وكم كنت أرتوي من نظرات تلك العينين يا ماما، كانت تعبر عن كل ما تشعرين به: حبك لي، وخيبتك، انتصارك بي، وحسرتك. وقد كانت خالتي أختا وأما

مثالية، لم تخيب ظن الماما ولم تخيب ظن براءتي، آوتنا في منزلها، بعدما كانت وحيدة فيه، أصبحنا ثلاثة. وعندما بلغت سن المدرسة، وقفت على تعليمي، و كانت توفر لي كل لوازمي المدرسية، بالرغم من راتبها القليل، قد كانت تصرفه كاملا من أجلنا. إنها مثال عظيم للرحمة والإخلاص. وأنا غارق في أعماق ذاكرتي، أيقظني أذان العشاء، واندهشت لانعدام إحساسي بالوقت، وجاء صاحبي حاملا في يده ساندويتشا. وقال لي وهو يعطيني إياه:

- اعتذر لأني تركتك وحيدا لمدة طويلة.

= لا عليك، الجو لذيذ هنا يؤنس الروح .

وهمّ بالدخول إلى الغرفة، وتبعته، ارتمى على أريكة وارتميت على أخرى، وسألني بنبرة فضول:

- كيف حال أمك والخالة ؟

= كما كان منذ عشر سنين، لم يتغير شيئا على الإطلاق.

– وفاس كيف حالها؟

= يزداد سوء سنة بعد سنة. عاصمة العلم تحوّلت إلى عاصمة البطالة والإجرام!

– إن حال البلاد كلّها يزداد سوءً على سوء، والعالم العربي على السواء.

= إن ما يحيرني هو أنني لا أعرف لماذا!

– السبب واضح يا صديقي، قطار التعصب الديني اصطدم به قطار العولمة.

= لم أفهم!

– الموضوع طويل، طويل جدا.

أكلت الساندويتش وأغلقت مصباح الغرفة، وكان صاحبي قد غرق في النوم، وآخر جملة قالها قبل أن ينام، أنه سيبشر صاحب الفيلا التي سأعمل فيها حارسا باستعدادي.

وفي الصباح، أيقظتني زقزقة العصافير، وزقزقت روحي لأول مرة، فاندهشت من نفسي ومن حماسي الغريب، أنا الذي كان صباحي مثل ليلي، أعيش فيه ظلاما وبؤسا شديدين. ولم يكن صاحبي في الغرفة آنذاك.

خرجت من الغرفة، تأملت في السماء، وكانت الشمس لطيفة شيئا ما، فاجتاحتني رغبة جامحة في الخروج.

وبعد نصف ساعة من التسكع عدت إلى السطح، وكانت الشمس قد بدأت تكشف عن حقيقتها، فاختبأت منها في الغرفة منتظرا صاحبي، وفي حضني كتاب الليالي البيضاء لدستويفسكي.

ولم تمض ساعتان حتى دخل علي وهو يقول :

= غدا، غدا في الصباح الباكر سترافقني إلى الفيلا، سأتركك هناك وأمضي إلى عملي.

فرحت، ثم اندهشت مرة تانية لأنني لم أعتد الفرح، أجبته:

– إن شاء الله، ولكنك لم تخبرني كثيرا عن تفاصيل العمل!

= الفيلا يعيش فيها رجل أعمال، يغيب عنها كل الأيام ما عدا يوم الأحد، وتعيش معه ابنته، و هي قصيرة القامة، عريضة الكتفين، لم تقطف من حقل الأنوثة ولو زهرة صغيرة. وهو يقهقه، أخرج من جيبه سيجارة وورقة النيبرو، وقطعة صغيرة من الحشيش بحجم حبة عدس. فتتها بيده وفسخ لفافة التبغ، ومزج بين فتات الحشيش وفتات السيجارة، وفي الأخير برمهما في ورقة النيبرو مشكلا قضيبا جديدا. فأوقد فيه النار، وبدأ يتأمله، كأنه يتمنى عدم خلاصه، وقال لي:

– الحشيش يرفعني إلى السماء، فأشعر بنفسي انفصلت عن كل مشاكلي وتعاليت عنها. حتى نفسي أنساها وأنا أدخن. يقال أن الحشيش مخدر المثقفين والمبدعين والأدباء!

وبعد تأمل طويل في سجارته قال لي بنبرة مزاح :

– هل تُشغل وضع الطائرة؟

= لا، لماذا؟

– لأن أحدا لا يتصل بك، ولا أنت تتصل بأحد.

وفجأة رّن هاتفي، كأنه استمع إلى ما قاله، وقد كانت خالتي هي من تتصل.

– آلو يا خالة، كيف حالك؟ وأمي كيف حالها؟

= كل الأحوال بخير، الحمد الله. وأنت كيف حالك؟ وهل أنت في حاجة إلى المال؟

– كل شيء بخير، أنا الآن مع مصطفى بن الجيران، وغدا سيكون أول يوم لي في العمل. إن احتجت شيئا سأتصل.

= بالتوفيق يا حبيبي، أتركك على خير وبلّغ سلامي لمصطفى.

*** * ***

شرقت الشمس، ووصلنا إلى الفيلا، وطرق صاحبي الباب، أما أنا كنت واقفا ألعب بأناملي وأتأمل ثيابي الجديدة، حذاء رياضي وسروال

أزرق، وتيشورط من نفس نوع السروال، وعلى الإثنين علامة توحي إلى مهنتي كحارس يومي. وفجأة فتحت الباب فتاة قصيرة، عريضة الكتفين ومن الوهلة الأولى أدركت أنها ابنة صاحب الفيلا. وفي تلك اللحظة تركني مصطفى متجها إلى عمله، وكانت حنان وهذا اسمها تتأمل في وجهي بعينين تفيضان حنانا فأحسست برحمة الله تتجلى من خلالهما. وأومأت لي بالدخول وعلى ثغرها إبتسامة أنارت أرجاء قلبي، ثم أتت الخادمة تشير لي باتباعها. تبعتها خطوة بخطوة حتى توقفت أمام غرفة ثم أعطتني المفتاح ملمحة أنها غرفة استقراري. ودخلت الغرفة بدون أن ألاحظ فيها شيئا لأن وعيي كان ينير سرائر نفسي ونور الوعي إن أنار أحشاء النفس تنساب الظلمة خارجها. فجلست شاردا أقارن بين ما قال لي مصطفى عن حنان، وبين ما شعرت به. هو يقول أن إسمها يناقضها، والحق أن الحنان ينفذ من نوافذها ..! أ ما بال الإنسان هكذا ينسى أن للروح نوافذا؟! بل ينسى أن للإنسان باطنا! وما كان ظاهر المنزل يشير إلى ما احتواه بين ضلوعه. إن للمنزل نوافذا كما أن للإنسان عينين.

* * *

تجلى صباح اليوم السابع من عملي و سكني هنا، ولم أر مصطفى إلى حد الآن منذ انفصلنا أمام باب الفيلا، وبصراحة شعرت بالراحة والإطمئنان هنا، واضمحل شعوري بالاغتراب. ولم أجد سببا لهذا التحول سوى ابتسامة حنان التي تلقيها في وجهي كل صباح، ونور عينيها الذي يبدد سحابة الغربة من سمائي، و تجعلها صافية خالية من شر الجن والشياطين.

وفي ذلك الصباح، كانت خارجة كعادتها، شعر ذهبي قصير، ووجه يخلو تماما من المايكاب، ولباس محافظ ولكن في نفس الوقت غير تقليدي. وهي تمشي بانتظام عجيب كأنها روح شفافة، وما يثيرني أنها غريبة أطوار، بالرغم من الشهرة والمال اللذين يحظى بهما أباها، تبدو كأنها لا تعرف شيئا من هذا القبيل. وأنا كعادتي فتحت الباب لتخرج بسيارتها المتواضعة، وهي كعادتها ألقت في وجهي ابتسامتها النورانية، و قالت لي الليلة ستكون سهرة يجتمع فيها أباها وأصدقاؤه كعادة كل ليلة تسبق الأحد، وكانت

هذه أول ليلة سبت سأمضيها بين جدران هذه الفيلا. وأول ليلة سأرى فيه والد حنان.

* * *

مضت الليلة كما لم تمض الليالي السابقة التي قضيتها هنا، وشرقت شمس الصباح، وخرجت قافلة من السيارات الفخمة من الفيلا، وتذيلتها سيارة والد حنان. ومن بعدها بدقائق خرجت حنان بسيارتها، بعدما ألقت علي ابتسامتها المعتادة، غير أنها كانت أعمق وأغمض من المعتاد. وانشغلت طول النهار بتقليم أظافر الحديقة ورويها، حتى دبّ الليل بصمته الأزلي، وأنا في غرفتي مرهقا أتأمل السقف. و فجأة سمعت صوت حنان تناديني بتوتر وخجل وتطرق الباب برقة و لطف.

– حنان! هل من مشكلة؟

= منذ رحلت روح أمي من دنيانا، خلت نفسي من الطمأنينة والأمان، فأصبحت كفرخ غزلان ضل عن القطيع، وأنت تعلم أن النفس فريسة سهلة تعشقها الوحوش!

استوعبتُ ميتافيزقا كلماتها، والكلمة ليست بالحقيقة وإنما باب سبيلها. وبعد هنيهة عذبة قلت لها:

- أعلم سيدتي، فالمساكن إذا خذلتها المصابيح أصبحت مطرحا تتهافت بين جذرانه الأشباح، وإن بِنت لك مصباحا جديرا فقد بلغت بي سقف طموحاتي ونواياي.

= منذ رأيتك أحسست بشيئ من الألفة والإطمئنان لا أعلم لماذا لكن أعلم! فكنت كلما أومأ الصباح برأسه ورأيتك عند خروجي زودتني إبتسامتك طاقة تضيء سريرتي.

- كأنك تقرئين ما خطه قلمي تحت عنوانك! فذات الأمر أعيشه. إن إبتسامتك تسبح في وجداني كأن الزمن لا يحكمها بتقنينه. ولم أشعر بنفسي

حتى استرسلت بالتعبير لها عن كل ما بين دفتي قلبي، حتى بلغ منها الإغفاء ما بلغ، فسلّمت لي وشكرت ثم عادت لغرفتها على نغمة السكون. عانقت الوسادة وقلبي يرقص فرحا. كيف أحسّت بالأمان لمجرد رؤيتي؟! وكيف أفصحت لي عن أسرارها؟! وكيف عبرت لها عن مشاعري؟! يا الله يدهشني هذا الكون، ننفر أو نطمئن لشخص بمجرد الإحساس بمجال جاذبيته، فلا حاجة للكلام والتفلسف، ولا حاجة لطول العشرة. فالألفة شعور روحي صرف، لا علاقة له بالعشرة ومجلدات من الكلام. عميقة أنت يا دنيا، مظهرك أفيون تفوح رائحته من ملابس جل الناس، أما عمقك قاع بحر يحوي الجواهر والمرجان. ولكن من يستطيع الغرق فيك أيها البحر. إنهم يطمئنون اطمئنانا زائفا على شاطئك، ويكتفون اكتفاء كاذبا، ويخافون هول الأمواج والأسماك المفترسة، لذلك دائما ما نجدهم على البر. مر شهران وحنان تتردد إلى غرفتي، كل ليلة تقضيها معي مسترسلة ومعبرة عمّا تتجه نفسها إليه، وعمّا مضى من معاناتها وأحزانها، وفي بعض الليالي كانت تناقشني في السياسة والدين

والفلسفة. حتى بلغت ليلة من ليالي أكتوبر الدامعة على أوراق الشجر والورود، وأثناء حوار فلسفي حول معنى الحب وكيفية التلاعب بالمعاني والألفاظ، قلت لها وتكسو وجهي ملامح الاستغراب:

– أحبك وماذا تعني؟! كل شخص قادر على قولها! كل شخص يتكلم بالحب وتبكيه الأشعار أو تفرحه! ما أصبحت أفهم شيئا ولا شيئا على الإطلاق! فتابعت هارمونية كلماتي قائلة:

= أحبك قد تعني أنا أحتاجك نسبة لضعيف، أو أستعبدك نسبة لنرجسي، أو أشتهيك نسبة لشهواني، أو أشفق عليك نسبة لعاطفي، وقد تعددت معانيها بأعداد قائليها. فقلت لها وقلبي يخفق بشدة:

– ولكن أنا أحبك يا حنان وما أنشد بها شيئا إلا ذاتها.

قلتها وتنفست الصعداء كأنني ما أخرجت من قلبي كلمة، بل أخرجت بحرا بأمواجه المتضاربة. أما حنان فلم تعد قادرة أن تقول بفمها، لكنه

قالت بعينيها ما صعد بي إلى السماء، ولم أشعر بنفسي حتى عانقتها وقبّلت فاها.

* * *

إن الحب أعظم نعمة من الله، بالحب تمضي الحياة بسلاسة، ويصبح لكل شيء معنى وأصالة، للزواج، للجنس، وللولادة.

إن الحب هو المعيار الحقيقي، والمرجع الأصيل لكل المبادئ والعلاقات الإنسانية، وها أنا خذني نموذجا، وتأمل في ثنايا كلماتي، ولاحظ كيف تحولت حياتي من سالبها إلى أعلى درجة في الإيجاب. ولم يمض فصل الشتاء، حتى كنت قد تزوجت حنان، وعدت إلى فاس لألثم خد هذه المدينة لثمة وداع. ودخلت منزل خالتي لأنبئه نبأ تركه خاليا بلا أنفاس تحوم فيه ولا خطوات، ولا دمعات تمتزج بأرضيته. ودخلت غرفتي لأقول للأريكة أني ما أصبحت أضطر للجلوس الخامل الطويل، وللسقف أني ما عدت أتأمل السقوف ضائعا. ها أنا وقد تغيرت، زوجتي بجانبي وأمي تحرك

أناملها وفي طريقها إلى التحسن التام، وخالتي لم تجني من إخلاصها العبث. بل جنت رد الجميل، وها نحن عائلة جميلة بعثنا الحياة في ثنايا هذه الفيلا، التي منذ غادرتها والدة حنان وهي شاحبة. أما صاحبي مصطفى فظل كما هو، يهرب من نفسه بالحشيش والعمل، وظلت حياته مجوفة خالية من المبادئ والمعاني الإنسانية، مثل الأوربوروس، من العمل إلى البزناز، ومن البزناز إلى غرفته. والحلقة تدور حول نفسها كل يوم، ككوكب الأرض.

* * * *

إدريس عامر

الأحلام الوردية أصبحت غابة من الأشواك. والمشاعر الدافئة أصبحت بركانا حارقا. فظلت الأم الساذجة تتعذب وتبكي. تتعذب وتبكي. حتى حان موعد ولادتي. فخرجت هاربا من بطنها. وفرح الدكتور. لقد كان يصلني عبر الحبل السري طعاما مهضوما بالمعاناة وشرابا مالحا ممزوجا بالدموع. فكيف لي ألّا أهرب بسرعة يا حضرة الطبيب؟!

الحجاب